وَقْفَةٌ عِنْدَ قَوْلِهِ -تَعَالى-

﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾

الشيخ عبد الجليل أحمد الكراني

الإحساء - المملكة العربية السعودية

فحوى البحث

ضم البحث في وقفته عند الآية الكريمة، درساً من دروس مكارم الأخلاق في القرآن الكريم بدعوته الى العفو والصفح عمن أخطأ بحق أخيه المسلم من غير إصرار وترصد. وقد احصى البحث معظم الآيات القرآنية الكريمة التي تدعو الى التماس العذر للمسيء، مذكّراً المؤمنين بأن الله -سبحانه و تعالى- هو أول العافين عن المذنبين، وانه امتدح اولئك الذين ينتحلون هاتين الصفتين الكريمتين. كما عزز البحث شرف العفو والصفح بالأحاديث الشريفة والأمثلة الأخلاقية، ووصل الى نتائج أثبت فيها بأن العفو والصفح هما دعامتا إصلاح المجتمع الاسلامي.

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى في كتابه الكريم أيضاً: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾[سورة الحجر: ٨٥].

وقال تعالى في كتابه الكريم أيضاً: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٨٩].

إنّ العفو والصفح من أصول الفضائل الإنسانيّة، والآداب الفرديّة والاجتماعيّة، والسلوكيّات التي حضّ القرآن الكريم عليها؛ لأن القرآن نور وهدى، يحتوي على مراحل من التعليم والتربية لا تكون على حد سواء، بل بعضها أرفع من بعضها وبعضها أحسن من بعض، وإن كان الكل رفيعاً حسناً ويرشدك إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[سورة النحل: ٩٠]، حيث إن الإحسان فوق العدل فمن اعتدى على الظالم بمثل ما اعتدى عليه فهو عادل، وأما من عفى وتجاوز عن مقابلته بالمثل فهو محسن، ولعلّ يشير إليه قوله تعالى ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾[سورة الزمر: ٥٥].

فالقرآن الكريم حرص على أن يكفل للفرد والمجتمع التوازن المستمر في سيرة الحياة، جامعاً بين الجانب السلبي والإيجابي، مساوياً بينهما، فأمر بالعفو والصفح؛ أخذاً باليُسر والسماحة ودفع الحرج والمشقّة عن الناس في الأقوال والأفعال.

وهذا بلا شكّ يتطلّب ملكات نفسيّة تسهّل ممارسته، كسعة الصدر، والحلم، وقدرة التحمّل، وحلّ المشاكل، وتجاوز العقبات؛ وذلك لأنّ العفو ركن مهمّ من الأخلاق الفاضلة التي يُسهم معها في بناء المجتمع الإسلامي، فمن أجل السمو بهذا المجتمع يتطلّب من الإنسان المؤمن أن يعدّ فضيلة العفو امتحاناً عمليّاً يتعرّف من خلاله على حقيقة النفوس التي يتعايش معها في البيئة الواحدة. قال امير المؤمنين عليه السلام في وصيته لمالك الأشتر: «فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه»[1].

(١) نهج البلاغة، في وصيته لمالك الاشتر.

لذا أحببنا في هذه الكلمات القليلة أن نلقي بالضوء على هذه السمة الأخلاقيّة المهمّة ودورها في بناء المجتمع، من خلال عرض معناها وذكر نماذج تاريخيّة تطبيقية منها، مع التطرّق إلى الإيجابيات التي تنتج عنها.

العفو والصفح في اللغة والاصطلاح والفرق بينهما

العفـــو من عفا، أي أزال وأمحى. ويقال: عفـــا أثر فلان والشيء: خفي. وأعفا الله فلاناً: وهب لـــه العافية من العلل والبلايا، وعافاه الله معافاة: أبرأه من العلل.

وعفا في أسماء الله تعـــالى (العفُوّ)، وهو مفعول من العَفو، وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس، وهو من أبنية المبالغة. وكلّ مَن استحقّ عقوبةً فتركتها فقد عفوت عنه[٢].

والعفوّ الكثير العفو، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [سورة النساء: ٩٩].

والصفح: من صَفَحَ، وصفح عنه صفحاً: أعرض، وعن ذنبه عفا عنه. ويقال: استصفح فلاناً: طلب منه الصفح، واستصفح فلاناً ذنبه استغفره إيّاه.

وتقول: أصفح عنه يصفح صفحاً أعرض عن ذنبه، وهو صفوح مصفاح: عفوّ، والصفوح الكريم؛ لأنّه يصفح عمّن جنى عليه[٣].

والصفْح -بتسكين الفاء- العفو، والصفوح: الكريم المتسامح.

والعَفـــو هو التفضّل على المخطئ والمسيء بالمسامحة والتجـــاوز، وعدم معاقبته، أو معاملتـــه بالمثل. وهو من صيغ المبالغة، ومعنـــاه التجاوز عن الذنب وترك العقاب.

والصفح ترك التأنيب، وإسقـــاط اللوم، وهو في الجنايات إسقـــاط ولي المقتول القَود عن القاتل. وهو أبلغ

(٢) انظر: المعجم الوسيط ٢: ٦١٢/ باب العين. معجم لغة الفقهاء: ٣١٦. لسان العرب ١٥: ٧٢.

(٣) معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ٢: ٣٧٢. المعجم الوسيط١: ٥١٦. معجم اللغة العربية المعاصرة ٢: ١٢٩٩.

من العفو، ولذا قال تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾[سورة البقرة: ١٠٩][٤].

والعفو عدم المؤاخذة مع إمكان بقاء أثر ذلك في النفس، أمّا الصفح فهو التجاوز عن الخطأ مع محو أثره في النفس. قد يعفو الإنسان ولكن لا يُصفح.

ويقال: صفحت عنه: أوليته منّي صفحةً جميلةً معرضاً عن ذنبه بالكلّية.

وهما -العفو والصفح -متقاربان في المعنى.

قال الراغب: الصفح: ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو، وقد يعفو الإنسان ولا يُصفح[٥].

وقال البيضاوي: العفو ترك عقوبة المذنب[٦]، والصفح ترك لومه، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾، ترقّياً في الأمر بمكارم الأخلاق من الحسن إلى الأحسن، ومن الفضل إلى الأفضل[٧].

والصفح الجميل: أن تعرض عن صفحة ذنبه وتطويها وتنهي الأمر، وتفتح صفحة جديدة في تعامله معك، فالصفح هو ترك الملامة والامتنان. قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾[سورة الحجر: ٨٥].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «كن جميل العفو إذا قدرت، عاملاً بالعدل إذا ملكت»[٨].

فالفرق بين العفو والصفح هو أنّ العفو هو التجاوز عن الذنب، فلا تعاقب عليه، لكن الصفح أن تنساه كلّياً وتعفو ولا تعاقبه إطلاقاً. فإذا لم تنسَ عمله وذنبه لكن عفوت عنه فهذا ليس صفحاً جميلاً.

وورد في كلام العرب ألفاظ مترادفة للعفو منها: الصفح، الإقالة، التغابن،

(٤) شرح الأسماء الحسنى (السبزواري) ١: ٦١. تحفة الأحوذي ٦: ١٢١. تاج العروس ١٩: ٦٨٦. التوقيف على مهمات التعاريف ١: ٢١٧.

(٥) المفردات في غريب القرآن: ٢٨٢.

(٦) تفسير البيضاوي ١: ٣٨٣.

(٧) الفروق اللغوية (أبو هلال العسكري): ٢٦٢.

(٨) ميزان الحكمة، ج٣، ص ٢٠١٤.

التغاضي، الغفران، التجاوز، العُتبى.

إنّ العفــو بمعنى المغفرة، والصفح ترك اللوم والتوبيخ، والذي هو مرحلة أعلى من العفو؛ لأنّه يمكن أن يعفو الإنسان عن الطرف المقابل، إلاّ أنّه لا يترك لومه وتوبيخه أو معاقبته. ولكن بما أنّ الصفحة في اللغة يعني الإعراض بالوجه عن الإنسان المذنب، فيمكن أن يكون إشارة إلى تناسي ذنب المذنب ووضعه في زاوية الإهمال والغفلة ولا يكتفي بترك اللوم فقط، أي لا يترتب أيّ أثر سلبي على العلاقة بين الطرفين.

وهناك مرتبة فوق العفو والصفح، وهي مرتبة الإحسان في التعامل مع الآخرين، يقول تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٩٦].

ويفهم من الآية الكريمة أنّ الرسول والمؤمنين مأمورون بتجاوز حالتي العفو والصفح والصعود إلى مرتبة أرقى، وهي ردّ السيئة بالحسنة، لكنّه عمل لا يتيسر لأي شخص كان، ولهذا فإنّ الآية التي جاءت في سورة فصلت تقول: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [سورة فصلت: ٣٥].

العفو والصفح
من الأخلاق الإسلامية

العفــو والصفح هما صفتان من صفات الله تعالى، وسمتان من سمات منهجه، فهو تعالى -جلّ ذكره- يصف نفسه في كتابه العزيز بقوله: ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [سورة النساء: ٤٣]، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [سورة المائدة: ١٥].

قال الإمام زين العابدين عليه السلام «اللهم إنك أنزلت في كتابك العفو، وأمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا، فاعف عنا فإنك أولى بذلك منا»[٩].

لذا فهما من الأخلاق الإسلامية الكريمة التي جاء بها الإسلام وأمر بهما، وحثّ المسلمين عليهما.

فالعفو خُلق العظماء والسادة من الناس، وليس خُلق الضعفاء والعبيد، والصفح عن الآخرين من أعظم المكارم. وهما معاً سرّ الحبّ والوداد المستمر بين المتحابّين، وعلاقة حبّ الله للعبد الذي

(٩) الصحيفة السجادية، دعاء ابي حمزة الثمالي.

يتخلّق به.

وقد رغّب الله تعالى في كتابه العفو عن الناس والصبر على أذاهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[سورة آل عمران: ١٣٤].

فهو شعار الصالحين الأتقياء ذوي الحلم والنفس الرضيّة، وهو عبارة أخرى عن التنازل عن الحقّ، وليس التنازل عن الحقّ شيئاً يسيراً أو سهلاً، وذلك تراه لا يتّصف بذلك إلاّ الكرماء؛ لأنّه نوع إيثار للآجل على العاجل، فالعفو فضل عظيم، وأجر كبير، فهو أقرب للتقوى، بل هو الكمال والتقوى، لذا خاطب الإمام الصادق عليه السلام أحد أصحابه بقوله: (ألا أحدّثك بمكارم الأخلاق؟. الصفح عن الناس، ومواساة الرجل أخاه في ماله، وذكر الله كثيراً)[١٠].

إنّ من الفضائل الأخلاقيّة التي لا يصل الإنسان إلى مراتب الكمال دونها هي صفة العفو عن زلاّت الآخرين وهفواتهم وذنوبهم، وترك الانتقام منهم. لذا عمدت مدرسة أهل البيت: بقيادة الرسول الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله على سرد الروايات والأحاديث التي تبيّن فضيلة العفو والصفح وذمّ الانتقام والأخذ بالثأر، وبثها في المجتمع الإسلامي، فطفحت سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله بمثل هذه النماذج من السلوكيّات الأخلاقيّة والإنسانيّة؛ إذ إنّ مثل هذا السلوك يؤدّي إلى انقلاب الطرف الآخر من موقع الشرّ والعداوة إلى موقع الخير والمحبّة والتجاذب، وتلك هي رسالة السماء الاجتماعيّة التي أمر الله تعالى نبيّه في نشرها وسط المجتمع بقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩].

فالآية الكريمة تأمر النبيّ صلى الله عليه وآله بأوامر أخلاقيّة مهمّة ثلاثة ترتّب بعضها على بعض، وهي العفو أوّلاً، والأمر بالعرف ثانياً الذي هو سيرة الحياة الطبيعيّة وما يفهمه أبناء العرف في تعاملهم وسلوكياتهم مع الآخرين، والإعراض

(١٠) وسائل الشيعة ١٥: ١١٩/ ٢٠٢٧٣.

من الجاهلين ثالثاً، وهي حالة التغاضي وترك ما يرميه الجاهلـون من تزييف الحقائق لأجل المساس بالقيم الإسلاميّة النبيلة؛ طمعاً في تحقيق مآربهم.

فيتّضح من الآية تكليف الآخرين؛ لأنّها أوامر صادرة من الله تعالى إلى نبيّه الكريم الذي هو القدوة الحسنة لسائر المسلمين، وهي توضّح في مضمونها أهميّة العفو والصفح في دائرة السلوكيّات من إلقاء المسؤولية على عاتق القادة الإلهيين؛ لكون الصفح والعفو من الصفات الإلهيّة والإنسانية كما تقدّم. لذا نجد أنبياء الله وأوليائه المتّقين الذين يمثّلون ـ بصدق ـ معاني الإنسانيّة يتّصفون بها، وهنا نرى أنّ القرآن الكريم يجعلها من صفات المحسنين، يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[سورة آل عمران: ١٣٤].

وينتقل من بعد ذلك إلى ما هو أرقى منه، فهو يحثّ على الصفح بعد العفو، فيقول تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾[سورة النور: ٢٢].

وعلى العكس من هذه الصفة الإنسانية الانتقام الذي هو من الصفات الحيوانيّة التي اتّسم بها الكافرون والمنافقون والظلمة.

من هنا أودع سبحانه وتعالى رحمته في قلوب المؤمنين من عبادة، فجعلهم يعفون عمّن أساء إليهم أو ظلمهم دون أن يوقعوا العقوبة بهم عند القدرة عليها، ذلك كلّه طلباً لعفو الله تعالى؛ فإنّ العبد إذا فعل ذلك صار أهلاً لعفو الله عنه، فإنّه تعالى هو الذي يعفو ويستر ويصفح عن الذنوب مهما كان شأنها، ويستر العيوب ولا يحب إظهارها، فهو العفوّ عن المسيء رغم إساءته، كرماً منه تعالى وإحساناً، بل يفتح واسع رحمته فضلاً وإنعاماً حتى يزول اليأس من القلوب، وتتعلّق بخالقها العفوّ الرحيم.

فإذا ما أيقن العبد المذنب بأنّ الله تعالى كريم يعفو عن السيئات ويعفو عن الكثير فضلاً عن القليل، يلجأ إلى التوبة وطلب السماح منه تعالى وإلى طلب

المغفرة والعفو، إذ العفو -كما يقول علماء اللغة -أبلغ من المغفرة؛ لأنّ الغفران يُشعر بالستر، بينما العفو يُشعر بالمحو، والمحو أبلغ من الستر.

وعندما يطمئن الإنسان بأنّ العفو هو سلّم يُرقى به إلى عزّ الدنيا والآخرة، وأنّ الانتقام دركات وانحدارات تهوي به إلى ذلّ ومقت يلاحقانه حتى الممات، فإنّ من الطبيعي أن يؤثّر العفو على الانتقام.

وإذا علم أبناء المجتمع الواحد بأنّ العفو يوسّع دائرة الصدقات والمحاورات فيصبح المجتمع كالبنيان المرصوص. قال رسول الله ﷺ: «تعافوا تسقط الضغائن بينكم»[١١].

أمّا إذا حاول البعض الانتقام فهو في هذه يسعى إلى تفشّي العداوات حتى يصل بالمجتمع إلى الدركات المملوءة بالوحل الذي إذا ما ارتمس فيه الإنسان صعب عليه الخروج منه، الأمر الذي يهزّ كيان المجتمع ويزعزع استقراره، فتسود الفوضى والتناحرات، وهو من أسوء الأمور.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «قلة العفو أقبح العيوب، والتسرع إلى الانتقام أعظم الذنوب»[١٢].

وعنه أيضاً عليه السلام: «شر الناس من لا يعفو عن الزلة، ولا يستر العورة»[١٣].

وقال عليه السلام لما ضربه ابن ملجم المرادي (لعنه الله): ((وصيتي لكم أن لا تشركوا بالله شيئاً، ومحمد ﷺ فلا تضيعوا سنته، أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين، وخلاكم ذم، أنا بالأمس صاحبكم، واليوم عبرة لكم، وغداً مفارقكم، إن أبق فأنا ولي دمي، وإن أفن فالفناء ميعادي، وإن أعف فالعفو لي قربة وهو لكم حسنة، فاعفوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟. والله، ما فاجأني من الموت وارد كرهته، ولا طالع أنكرته، وما كنت إلا كقارب ورد، وطالب وجد، وما عند الله خير للأبرار))[١٤].

(١١) كنز العمال، ج٣، ص ٣٧٣.

(١٢) ميزان الحكمة، ج٣، ص ٢٠١٣.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) نهج البلاغة: ٢٣.

نماذج العفو عند النبي ﷺ:

إذا كان الإسلام قرّر حقّ المظلوم في معاقبة الظالم على السيئة بمثلها وفق العدل الإلهي، فإنّ العفو والمغفرة من غير تشجيع على الظلم والتمادي فيه أكرم وأرحم، وقد ضرب القرآن الكريم مثالاً رائعاً في قصّة نبي الله يوسف عليه السلام مع إخوته، فقد عفا عنهم بعد أن أوقعوا به حسداً منهم له، وهذا في الحقيقة نوع من العفو البشري دلّ عليه الكتاب الكريم في تلك القصّة التي ذكرها بالتفصيل.

وأرقى من ذلك هو عفوّ النبي ﷺ عن أهل مكّة بأجمعهم، فقال لهم: ((اذهبوا فانتم الطلقاء))[١٥]. فقد عفا عنهم، وصفح عن أعمالهم، مع أنّه قادر على الانتقام منهم آنذاك.

هكذا صفح الرسول مع أهل مكّة الذين آذوه وحاربوه؛ إذ قد بالغت قريش في إيذائه وأحكمت قبضتها منه حتى أخرجته من بين أهله وعشيرته، ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا أصحابه، وكسروا رباعيّته، وهو مع ذلك يقول من قلب خالٍ من الحقد، ولسان صادق لا يعرف الكذب أو النفاق أو الخيانة: ((اللهم أغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون))[١٦].

وهذا مثال رائع وأنموذج راقٍ يقدّمه الرسول الأعظم ﷺ من مجموعة كبيرة من الأمثلة السامية التي ضربها طيلة فترة حياته للإنسانية، فهو يطلب المغفرة عمّن أساء إليه في القول والفعل، فقد عفا عن الكثير، وتجاوز عن الكثير، وأصفح عن الكثير ممّا لاقاه من قريش وحلفائها أيام دعوته إلى الإسلام، لكنّه حين تمكّن منهم لم يعاقب ولم يثأر، بل عفا وسامح وأصفح، وهذه سجيته وصفاته الحميدة، وأخلاقه النبيلة التي مثّل بها الإسلام.

لقد عفا الرسول الأكرم ﷺ عن وحشي الذي قتل عمّه حمزة بن عبدالمطلب في غزوة أحد، وكان من أعزّ الناس على قلبه. وكذا عفا عن رأس المنافقين أبيّ بن أبي سلول الذي كان يكرهه ويحاربه ويدبّر له المؤامرات، وكذا عفا عن عكرمة بن أبي جهل الذي

(١٥) السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ١١٨.

(١٦) مجمع الزوائد ٦: ١١٧.

حاربه أكثر من عشرين سنة.

ولا يظنّ البعض أنّ ذلك العفو والصفح قد يؤدّي إلى الذلّة والضعف والهوان، فإنّ ذلك غير صحيح، وإنّما هو قمّة الشجاعة، وهو غلبة الهوى، ولا سيّما إذا كان عند المقدرة على الانتصار كما هو الحال في عفو رسول الله ﷺ وصفحه، فلقد دخل مكّة فاتحاً وكانت قد ثارت عليه وتآمرت على قتله بعد أن نكّلت بأصحابه، فجاءهم من منطلق القوّة والعزّة، فخضعوا له ملقين سلاحهم عاجزين عن مقاومته، فمدّوا إليه أعناقهم ليحكم فيهم، فقد مكّنه الله تعالى منهم، لكنّه ﷺ عفا عنهم رغم مقدرته منهم، ضارباً بذلك للعالم وللأجيال أعلى مثلاً في العفو والصفح، وهو الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة والمثل الأعلى للبشرية.

بين العفو والانتقام

إنّ من عظيم أخلاق المؤمن أن يقبل العذر من المعتذِر، ويصفح عن المتعمد للخطأ في حقّه، وليس ذلك بواجب حتمي، ولكنّه كمال أخلاق المؤمنين.

فالعفو كالانتقام ممّا أنزله الله، و لكن العفو أحسن منه، وقد أمرنا القرآن-بالأمر الندبي -باتباع ما هو أحسن كما أمرنا بدرء السيئة بالحسنة لا بسيئة أخرى مثلها، ومدح الذين يدرؤون بالحسنة السيئة، حيث قال تعالى: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [سورة الرعد: ٢٢]، وأثنى على الذين يدفعون السيئة بالتي هي أحسن بأنّ ذلك مقام لا يناله إلا الصابرون، ومنزلة لا يبلغها إلا ذو حظ عظيم، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[سورة فصلت: ٣٤-٣٥].

و يقول تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[سورة البقرة: ٢٣٧]، وكذلك قوله: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[سورة النور: ٢٢].

وإذا كانت إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان، فما بال العفو عن

إنسان، حيث يبدّل خوفه أمناً، وضيقه فرجاً، ويأسه أملاً، فهو بذلك يدلّ على الإيمان ويؤكّده ويزيد فيه ويجدّده.

وإذا كان من كمال الأخلاق العفو والصفح عن المذنب والمسيء، فإنّه في الوقت نفسه يكون من الكمال، بل من الواجب على مَن أخطأ في حقّ أخيه أن يُبادر إلى الاعتذار له، طالباً منه العفو والصفح، فإنّه بذلك يحقّق مقاصد للشرع جليلةً من الألفة والمحبّة، وإزالة البغضاء والحقد من القلوب، وجعل المحيط المجتمعي ودّياً تسوده العلاقة المريحة مع الآخرين، فهو يجعل بذلك العمل العدوَّ صديقاً، وبذلك يصير أقرب إلى ربّه ممّا لو آثر نفسه وأخذته العزّة بالإثم وأصرّ على الاعتداء والخطأ، الأمر الذي يُساعد الطرف الآخر على الانتقام صارفاً نظـــره عن العفو والصفح.

وفي الاعتذار وطلب الصفح علاج للنفس من داء الكِبر والعجب، يقول ابن حبّان: الاعتذار يُذهب الهموم ويجلي الأحزان، ويدفع الحقد ويذهب الصدّ، والإقلال منه تستغرق فيه الجنايات العظيمة والذنوب الكثيرة، والإكثار منه يؤدّي إلى الاتّهام وسوء الرأي، فلو لم يكن في اعتذار المرء إلى أخيه خصلة تُحمد إلاّ نفي العجب عن النفس في الحال، لكان الواجب على العاقل ألاّ يفارقه الاعتذار عند كلّ زلة[١٧].

والمسلم يقبل توبة المسيء المتعمّد بعد طلبه للصفح والعفو، ولو غلب على ظنّه عدم صدقه في اعتذاره، فعلى المخطئ المبادرة إلى التوبة وطلب الصفح بصدق وإخلاص، وعلى المساء إليه أن يصفح ويعفو. قال رسول الله ﷺ: «إذا أوقف العباد نادى مناد: ليقم من أجره على الله وليدخل الجنة، قيل: من ذا الذي أجره على الله؟. قال: العافون عن الناس»[١٨].

وعلى المخطئ المسيء في حقّ أخيه- العامد وغيره -أن يسلك السبيل الأقوم في الاعتذار لأخيه الذي أخطأ في حقّه، ويكون ذلك بتحقيق أمور:

١. المبالغة في الإخلاص لله تعالى في

(١٧) روضة العقلاء: ١٨٦.

(١٨) كنز العمال، ج ٣، ص ٣٧٤.

الاعتـــذار وجعله خالصاً لوجهه الكريم.

٢. الصدق في الاعتذار.

٣. اختيار المناسب من الأوقات عند أخيه المُساء إليه لتقديم اعتذاره.

٤. انتقاء الكلمات والمفردات المؤثّرة التي تعبّر عن المبالغة في الاعتذار.

٥. حمل ما تمكن أو تسيّر له من الهدايا على نحو الأفضليّة اللائقة بحال المُساء إليه ويقدّمها له بين يدي اعتذاره، فإن لم يتيسر له ذلك فيكثر من الدعاء له والثناء عليه.

بعد الاعتذار وطلب العفو والصفح يعمل الإنسان المُساء إليه الحكيم حكمته لكي يعرف متى يُعاقب بالمثل أو يعفو، إذ ليس دائماً يكون العلاج الصحيح والأنجح هو العفو على الرغم من كونـــه أحسن الكمالات، ومن فضائل الأخلاق، إلاّ أنّ العفو أحياناً يُفسد الأمور بدلاً مـــن أن يُصلحها، فالعفو والصفح يكونان مقدّمين في حال كانت إيجابياتهما أكثر مـــن المعاقبة بالمثل أو الاقتصاص، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص ونوع الإساءة، فهناك موارد يكون العفو والصفح فيها سبباً لجرأة المنحرفين، ولا شكّ أنّ العفو في كلّ هذه الحالات والموارد لا يكون فضيلة أخلاقيّة، بل ربّما يكون حفظ نظام المجتمع والنهي عن المنكر والتصدّي لمنع وقوع الجريمة يقتضي عدم التساهل مع المجرم وترك العفو.

ومـــن هـــذا المنطـق ثار الإمام الحسين عليه السلام بوجه يزيد بن معاوية بعد أن رأى الدين الحنيف في خطر، فليس المحل محل عفو وصفح، وإنّما المقام مقام جهاد ومقاومة وردع للظالم عن ظلمه الأمّة الإسلامية والتحكّم في مقدّراتها، ونهب ثرواتهـــا، وإذلال المسلمين واستعبادهم. يقـــول أمير المؤمنين عليه السلام مؤكّداً هذا المعنى: ((العفو يُفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم))[١٩].

لذا نستطيع القول بعد هذا الكلام بأنّ أفضل الطرق لعلاج صفة الانتقام والصعود إلى أوج العزّة والكرامة هي

(١٩) شرح نهج البلاغة (ابـن أبي الحديد المعتزلي) ٢٠: ٢٧٠.

فضيلة العفو والصفح، وذلك يكون بالتفكّر السليم حول معطيات وآثار كلّ من هاتين الصفتين الأخلاقيتين، فعندما يرى الإنسان ما في العفو والصفح من البركات والمواهب والمعطيات الدنيويّة والأخرويّة، وكيف أنّه يتسبّب في زيادة مكانته وعلوّ قدره وعزّته في نظر الخالق والمخلوق، فهو يريح الإنسان من الكثير من المشكلات والمصاعب، فينفتح له أبواب الحياة الكريمة، ويثير المحبّة له في قلوب الناس، في حين أنّ الانتقام والردّ بالمثل أحياناً يؤدّي إلى انهدام عناصر الخير في حياة الإنسان، ويعرّض نفسه وماله وسمعته إلى الخطر، فحينئذٍ إذا قارن الإنسان بين هذه المعطيات الإيجابيّة والسلبيّة للطرفين فإنّه سوف يأخذ جانب العفو قطعاً ويرجّحه على جانب الانتقام، ويستمر في سلوك هذه الطريق حتى تحصل لديه ملكة أخلاقيّة لفضيلتي العفو والصفح.

ومن جهة أخرى فعندما يتأمّل الإنسان في جذور الحالة السلبيّة للانتقام والدوافع النفسيّة التي تثيرها هذه الحالة في نفسه، فإنّه سيتحرّك نحو علاجها والحدّ من شرّها، وبذلك يتسنّى له القضاء على المعلول في القضاء على علّته، فيتبدّل الحقد والكراهية وحبّ الانتقام إلى الأخوّة والمحبّة والعفو والصفح.

آثار العفو الفرديّة والاجتماعيّة:

ممّا تقدّم يتّضح أنّ للعفو آثاراً ومعطيات حميدة وكثيرة في حركة الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، ويمكن تلخيصها في ما يلي:

١. سلوك طريق العفو والصفح يبدّل العدوّ إلى صديق، وذلك فيما لو كان متزاماناً بالإحسان إلى ذلك العدوّ.

٢. ومما يتفرّع على النقطة الأولى دوام واستمرار الحكومات والقدرة السياسية؛ إذ الحاكم الذي يمارس العفو مع الأعداء يقلّل بذلك حالة العداء والخصومة لدى المخالفين، وهو في الوقت نفسه يزيد بهذا الفعل جماعة الأصدقاء والمحبّين. يقول الرسول الأكرمﷺ: ((عفو الملوك بقاء الملك))[٢٠].

(٢٠) ربيع الأبرار (الزمخشري) ٢: ١٠٦.

٣. زيادة عزّة الشخص وتقوية مكانته في المجتمع؛ لأنّ العفو والصفح علامة على قوّة الشخصيّة وامتلاك القرار وسعة الصدر. وعلى العكس منه الانتقام الذي يدلّ على ضيق الأفق وعدم التسلّط على النفس وامتلاكها. يقول الرسول الأكرمﷺ: ((عليكم بالعفو، فإنّ العفو لا يزيد إلاّ عزّاً))[٢١]. وحكي أنّ مالك بن الأشتر رضي الله عنه كان مجتازاً بسوق وعليه قميص خام وعمامة منه، فرآه بعض السوقة فأزرى بزيه فرماه ببابه تهاوناً به فمضى ولم يلتفت، فقيل له: ويلك تعرف لمن رميت؟. فقال: لا، فقيل له: هذا مالك صاحب أمير المؤمنينعليه السلام، فارتعد الرجل ومضى ليعتذر إليه، وقد دخل مسجداً وهو قائم يصلي، فلما انفتل انكب الرجل على قدميه يقبلهما، فقال: ما هذا الأمر؟. فقال: أعتذر إليك مما صنعت، فقال: لا بأس عليك فوالله ما دخلت المسجد إلا لأستغفرن لك))[٢٢].

٤. العفو بمثابة المحطة الأخيرة التي تقف عندها عناصر الشرّ، فهو يقطع تسلسل الحوادث الأخلاقية من الحقد والبغضاء وغيرها من السلوكيات الذميمة. وعلى عكسه الانتقام، فهو يدعو إلى التعامل بقساوة ويزيد من الكراهية وعناصر الخشونة ويأجج نار الحقد، وربّما يؤدّي إلى إشعال فتيل الحرب بين القبائل أو الطوائف، فتسفك بذلك الدماء، وتصرف الأموال وتدمر وتهدر الكثير من الطاقات والأموال والثروات تبعاً لذلك. يقول الرسولﷺ: ((تعافوا تسقط الضغائن بينكم))[٢٣].

٥. من نتائج العفو طول العمر؛ لأنّه يتسبّب في سلامة الروح، وهدوء النفس، وتسكين القلب. يقول

(٢١) الكافي (الكليني) ٢: ١٠٨.

(٢٢) بحار الانوار، ج ٤٢، ص ١٥٧.

(٢٣) كنز العمال ٣: ٣٧٣. الجامع الصغير (السيوطي) ١: ٥٠٨.

الرسول صلى الله عليه وآله: ((مَن كثر عفوه مُدّ في عمره))[٢٤].

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام: ((العفو مع القدرة جُنّة من عذاب الله سبحانه))[٢٥]، وهذا المعنى عن أمير المؤمنين يُشير فيه إلى نتائج العفو والصفح المعنويّة، وهي الأجر والثواب الأخروي، وهو كثير جدّاً.

زرع العفو:

في ختام كلامنا عن العفو والصفح نشير إشارة موجزة إلى كيفيّة تنشأة الأبناء والأولاد وزرع العفو ومعانيه والتسامح وقيمه في نفوسهم، وذلك من خلال ما يلي:

١. أن يكون الأب والأمّ مثالاً وقدوة للأبناء في ذلك من خلال تعاملهما مع الحوادث اليومية التي لها علاقة بالأبناء وبالآخرين، وذلك كي يشعروا بهذا المعنى.

٢. دراسة الآيات الكريمة التي تتحدّث عن العفو وتفسيرها وتوضيح معانيها، وكذا الأحاديث الشريفة والحكم، والإكثار من القصص التاريخيّة التي تحمل هذا المعنى، والتي توضّح كيفيّة العفو والتسامح.

٣. بيان الآثار الإيجابيّة للعفو على النفس وما يتبعه من عظيم الثواب وإن كان مظلوماً.

٤. إكثار الاستماع إلى الذين يتحدّثون عن هذا الأمر سواء العلماء أو الخطباء أو غيرهم.

٥. خلق حالة المنافسة بين الأبناء لأجل تعميق مثل هذا الخلق في نفوسهم، وتعويض المغصوب حقّه عند الشعور منه بالعفو والتسامح على ما غُصب عليه؛ لأجل تشجيعه على فعل مثل هذه السجيّة.

(٢٤) ميزان الحكمة (محمد الري شهري) ٣: ٢٠١٣.

(٢٥) عيون الحكم والمواعظ (الواسطي): ٢٧.